اكتشاف النفس والتعمق في العبودية

سؤال: ذكرتم سابقًا أنَّ تعمق الإنسان في عبوديته لله تعالى وارتباطَه به سبحانه إنما يتحقَّقان بمعرفةِ المرءِ نفسه وسبرِه أغوارها، فهل توضحون ذلك؟

الجواب: يُقالُ إن: "العَادَاتِ لَا تُتْرَكُ"، ومنها استُنبطت القاعدة: "تَرْكُ العَادَاتِ مِنَ المُهْلِكَاتِ"، وعليه فإن كان من أمرٍ لا بدَّ أن يُحوَّلَ إلى عادةٍ فلا شيءَ أحقُّ من العبادةِ، فعلى المؤمنِ أن يتَّخِذَ من عبادته وطاعته الواجبةِ عليهِ لله تعالى وصلتِه به سبحانه عاداتٍ يستحيلُ أن ينفكَّ عنها أبدًا، ولو أنَّ الإنسانَ بعبادته وطاعتِه وصلته القويّة بالله ﷻ استطاعَ أن يَتَحَصَّلَ على هذه الخاصية، وأن يجعلَها عمقًا داخليًّا في وجدانه فربما يصلُ إلى ما وصلَ إليه بعضُ أولياءِ الله الذين قالَ أحدهم يومًا: "إن غاب قلبي عن مراقبةِ ربي طرفةَ عين فإنّني أموتُ مباشرة!" ولهذا فإنه مهمّ جدًّا بالنسبة للإنسان أن يتحرك وكأنه يرى الله تعالى أو أن يُوقنَ بأن الله تعالى يراه، وعليه أن يَجِدَّ دائمًا بحسّه وشعوره وإرادته في البحثِ عن رضا الله، وأن يبتعدَ تمامًا عمَّا يُغضِبُهُ ويُسخِطُهُ، وأن يخصَّه تعالى بما في داخله من مشاعرِ الحبِّ والاحترامِ.

obeikandi.com

والوصولُ إلى مثل هذا الحال من اليَنْعِ والنضوج هدفٌ بالنسبة لكلِّ مؤمنٍ، والأصحُّ أنَّه يجبُ أن يكونَ ذلك هو هدفه، غير أنَّه ينبغي للإنسان كي يصلَ إلى ذلك الهدف أن يراقِبَ نفسَه دائمًا، مُتسائلًا في سرّه بِكُلِّ صدقٍ: "تُرى هل أستطيع أن أتمثّل الحالَ اللازمَ من أجل الوصول إلى مثل هذا الأفق؟ هل أستطيعُ أن أُحلِّقَ دومًا نحو المعالي في سماوات الترقّي غيرَ مُكتَفٍ بالوضع الذي أنا فيه، وناشدًا المزيد والمزيد؟".

سبيلُ الحقيقة والتواضع

إن من الأهميّةِ بمكان بالنسبة لسالكِ سبيل الحقيقة أن يستهدف الذُرى والمعالي دائمًا، وألا يكتفي أبدًا بالمرتبة التي وصل إليها وهو يسيحُ في أفقِ الروح والقلب، وإننا لا نقصدُ بكلامنا هذا أن يُعَبّرَ الإنسانُ عن نفسه بإظهاره مجموعة من الأشياء الخارقة للعادة، وإنما أنْ يُعبّرَ عنها بمعرفتِه لله ﷻ وتعمُّقِه في عبوديّته له سبحانه؛ بحيث يرى نفسه صفرًا بين يديه ﷻ، ومن ثم فلو افترضنا أنَّ إنسانًا ما استطاعَ بقوَّته الخاصّة أن يُغَيّرَ اتجاهَ حركة العوالم كلِّها وليسَ الكرة الأرضيّة فحسب؛ فعليه أن يوقِنَ ويؤمنَ بأنَّه أمامَ عظمةِ الحقِّ تعالى وشؤونه لا يُساوي أو يعدِل شيئًا ألبتّة، وأنَّ كلَّ شيءٍ منه ﷻ، ومن هذه الناحية فإنه يجب على سالكي سبيل الحقيقة ألا يطلبوا أبدًا أشياء خارقةً للعادةِ كالسَّيرِ على الماءِ دون الغرقِ فيه، والتحليق في الهواء بلا أجنحة، والطواف بالكعبة في لحظةٍ بطيِّ المكان وهم جلوس؛ فَطَلَبُ مثل هذه المنحِ التي وهبها الله تعالى بعضًا من أوليائه مخالفٌ لِروحِ سبيلِ الحقيقةِ؛ إذ الأساسُ في هذا السبيلِ هو التواضعُ

وليـنُ الجانِبِ واحتقارُ النفسِ وتعنيفُها، وبالمناسـبة أقول: إن أبطالَ الحقيقـةِ الذيـن لا يطلبون هذا النوع من الرُّتَـبِ والمقامات المعنويّة لا يطلبـون أيضًـا المقامـات والرُّتَبَ الدنيويّة مثلَ منصـبِ قائم مقام ووالٍ ونائبٍ ووزيرٍ وما شابهه.

وينبغـي ألا يُفهم من هذا الكلام أنّنا نسـتخفُّ أو نُقلِّلُ من شـأنِ هذه المناصب الإدارية، لكنَّ الميلَ إلى مثل هذه الأشـياء أمامَ عظمةِ القِيَمِ الساميةِ النبيلةِ المنشودَةِ إنما هو سوءُ أَدَبٍ وإساءةٌ لِتِلْكَ الحقائق المرغوب فيها، فإن طُلِبَ في هذا السـبيل "رضا الله" فلا بدَّ أن نعلمَ أنه ليس ثمةَ شـيءٌ يفوقُ الرضا حتى يُعْدَلَ عنه إليه، وإن اسـتُهدِفَت "رؤيةُ جماله" فينبغي أن نوقِنَ أنه ليسَ ثَمَّةَ ما هو أجمل منه كي يُمال إليه، وإن طُلِبَت الفردوس تَحتَّم أن نعلم أنه ليس ثمة مكان أهم منها فَيُسْتَنْكَفَ عنها إليه، وإن استَهدفَ الإنسان هذه الغايات السامية كلها كان نكوصُهُ عنها وتحوُّله إلى أشياء غيرها إساءة لتلك الغايات ليس إلا. أجل، إنْ طَلَبَ أحدٌ من رجال الحقيقة أن يكون خادمًا من خدام الرسـول الأكـرم ﷺ ومولى مـن مواليه فإنّه لا يقبـلُ التحريرَ من هذا القيـدِ أبـدًا، بل يَصـرخُ بأعلى صوتِه حال كونـه مولى للمصطفى ﷺ تعبيرًا عن رضاه بالإسلام متمثِّلًا في ذلك قولَ جلال الدين الرومي:

صرتُ عبدًا، صرت عبدًا يا لَلْهَنا فلقد صرت عبدكَ
وفي خدمتي إياك هرمتُ واحدودَبَ ظهري وَبِتُّ مَنهَكا
إنّ العبيدَ حين تُعتَقُ تُسَرُّ وتَمْرَحُ أمّا أنا فبعبوديّتي لك أبتَهِجُ وأفرحُ

فإنّـه لن يسـتبدل بهذا أيَّ شـيءٍ آخر، بل ويجـب عليه ألا يفعل ذلك.

الأبواب مُغلَقةٌ في وجه "الأنانيّ"

إنْ عَجَزَ الإنسانُ عن الخروجِ من دائرةِ نسبةِ الأمرِ إلى نفسه فإنه يُصاب بِدَاءِ الأنانيّة، وبِقَدْرِ تعلُّقه بأنانيَّته يقترب من الشيطان ويبتعد عن الله ﷻ، وكلُّ "أناني" يُفَكِّرُ في نفسه فحسبُ لا تنفتِحُ له أبدًا أبوابُ الطريق الموصِّلة إلى الله تعالى، وكلّما أرادَ أن يفتَحَها وجَدَها موصدةً ومغلقةً على الدوام؛ فينتظر دون جدوى أمامها، والواقع أن ثمة أمارة على الكِبْرِ والغرور في قولِ "أنا"، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي دَيْنٍ كَانَ عَلَى أَبِي، فَدَقَقْتُ البَابَ، فَقَالَ: "**مَنْ ذَا**" فَقُلْتُ: أَنَا، فَقَالَ: "**أَنَا أَنَا**" كَأَنَّهُ كَرِهَهَا[٢]، لأننا ربما يكون ثمة نوع من الكبر في قول "أنا" هذا، فيصبح وكأنه قال "ليست لي حاجة إلى التعريف بنفسي".

أجل، إن ترديدَ كلمة "أنا" دائمًا يُشْبِهُ الطبلةَ التي تُقرَعُ فتُصْدِرُ صوتًا، فكما هو معلومٌ فإن الطبلةَ ما تُصدِرُ صوتًا إلّا لأنها فارغةٌ من الداخل، والشخصُ الذي يقولُ "أنا" دائمًا يحطُّ من نفسه إلى دركةِ مخلوقٍ حقيرٍ أجوف كالطبلةِ؛ إذ ليس من شأن عَامِرِ القلبِ أن يُصْدِرَ مثل هذا الصوت، وقد شَبَّه جلال الدين الرومي أمثال أولئك الأشخاص الواهين بِعُلَبٍ تحوي بداخلها بضعَ خرزاتٍ وخُشخَيْشَاتٍ من قبيل اللُّعب تُصدر أصواتًا كلما حُرِّكَت، أما الأشخاص عامرو القلوب فقد شبَّههم بصناديق المجوهرات التي لا تُحدِثُ صوتًا ولا تُفْشِي سِرًّا لامتلائِها بالجواهِر.

---

(٢) صحيح البخاري، الاستئذان، ١٧؛ صحيح مسلم، الأدب، ٣٨-٣٩.

إن الصمتَ علامةٌ على الحياءِ والتواضُعِ ولِينِ الجانِبِ، ومن يُجَسِّدُون هذه المشاعر في كلِّ أطوارِهم هم أناسٌ تأتي الحركةُ والعملُ على رأسِ أولويّاتهم ويسعَون لإنتاج مشاريع وخطط دائمةٍ من أجل بَلَدِهم وأمَّتهم والإنسانية جمعاء، وأفعالُهم تسبقُ أقوالهم، واختراعاتُهم تسبق أصواتَهم وكلامهم، تمامًا كما تَصِلُ الصواعقُ إلى أهدافها قبل أن يُسمَع صوتُ الرعدِ في السماء، أما البَطَرُ والخُيَلاءُ فما يحتويان إلا على الضجيجِ والإزعاجِ، وبالتالي فإن من يبنون حياتهم عليهما لا يُصْدِرُون إلا ضوضاء فارغة، في حين أن الأساسَ هو أن يسبق العملُ القولَ، وقد دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام ربّه قائلًا: ﴿**وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٨٤/٢٦) فطَلَبَ بذلك أن يُوفَّقَ للقيام بخدماتٍ أبديّة تمتدُّ إلى الأجيال القادمة، وهذا قولٌ يُؤْثِرُ الحركة والعمل ويجعلهما على سلّم أولويَّاته، ولذلك فينبغي للإنسان أن يَبْذُرَ الحبوبَ بالحقلِ بقدرِ معرفته واستطاعته، ويفوّضَ الباقي إلى الله تعالى، غير أن الخدمةَ انطلاقًا من فكرةٍ عميقةٍ شاملةٍ كهذه لا تتحقَّق إلا بمعرفةِ الإنسان ربَّه ﷻ وإدراكه إيَّاه، وهذا مرهونٌ بما يُقابِلُهُ على الصعيدِ الآخَرِ من معرفةِ المرءِ نفسه وسبره أغوارَها.

من لا يعرف نفسه لا يعرف ربه

رُوِيَ في الأثر: "مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ"[٣]، ومن ثَمَّ فإن من يتأمل في نفسه ويحلّلُها -بما فيها البنيَةُ الفسيولوجيّة والوجدان بأركانه الأربعة: الإرادة واللطيفة الربانية (القلب) والذهن والحسّ- يعرف ربه بصورة أفضل وأحسن، وإن كان لهذه العبارةِ مفهومُ

(٣) الأصبهاني: **حلية الأولياء**، ٢٠٨/١٣، الغزالي: **إحياء علوم الدين**، ٧٢/٤؛ المناوي: **فيض القدير**، ٢٢٥/١.

مخالفـةٍ فهو علـى النحو التالي: "من لا يعرف نفسَـهُ لا يعرفُ ربّه"، إذن يلزم الإنسانَ أن يعرف ماهيَّة نفسه وكنهها كي يعرف ربَّه، وعلى حدِّ قولِ الأسـتاذ بديـعِ الزمان فإن الإنسـان "مصنـع متكامل"(٤) كلُّ جزء فيه متناسِـبٌ مـع الآخَرِ تناسـبًا حقيقيًّا، وهذا المخلوقُ يتناسبُ فـي الوقتِ نفسـه مـع الكون أيضًا تناسُـبًا حقيقيًّا وثيقًـا، فمثلًا هناك علاقـةٌ وصِلَـةٌ بينَ فم الإنسـان وبين ما سـيأكله به مـن المأكولات، وكذلـك ثمـة علاقةٌ وصِلَةٌ بين عينيهِ وما سـيَرَاه بهما من أشـياء، إنها مناسَـبَةٌ وصلةٌ يستطيـع المرء في ظلِّها رؤية وتمييزَ الموجودات التي تتجلّى في أبعاد مختلفة.

وهذا التناسـب الموجود بين أعضاء الإنسان قائم أيضًا بينه وبين غيره من الموجودات في الكون الذي يعيش فيه؛ فبحسبِ قول علماءِ الفيزيـاء والفلـكِ ثَمّةَ علاقةٌ وصِلَةٌ حتى بيـن أبعدِ الأنظمةِ والأجرام السـماوية وبين الإنسـان الذي يبدو مخلوقًا صغيرًا جدًّا على سـطح الأرض، إلا أنـه يجـب البدء أوَّلًا من أقرب نقطة حتى يتسـنّى إدراكُ هـذه العلاقـة وفهمُهـا، فمثلًا حين يُحَلِّلُ الإنسـانُ نفسَـه مـن زاوية العلاقة بين فمه والموادِ التي سيأكلها وبين عينيهِ والأجسام التي تراها عينـاه لا بـدَّ وأن يَصِلَ إلى الأدلَّـةِ التي تؤكِّدُ وجـودَ الخالِقِ الأعظَمِ ووحدانيَّتـه، وهنـاك كلامٌ مبارَكٌ طيّبٌ وردَ فـي بعض كُتُبِ التصوُّفِ يُقـالُ إنه حديثٌ قدسـي؛ يقول فيه الحقُّ تعالـى: "يا ابنَ آدم! يعرفُنِي من يعرفُ نفسَـه، ومن يعرفُني يبحثُ عنّي، ومن يبحثُ عني يَجِدني بلا شـكٍّ، ومن يجدُني ينالُ كلَّ رغباته وآماله بل وما هو أكثر، ينالها

(٤) انظر: **الكلمات**، الكلمة الثالثة عشرة، المقام الثاني، ص ١٧٣.

ولا يُفَضِّـلُ علـيَّ أحدًا، يا ابن آدم! تواضــع فتعرفني.. جُـع فتراني.. أخْلِص في عبادتك فتصل إليَّ.. يا ابن آدم! أنا الله؛ يعرفني من يعرف نفســه، ويجدني من يهجر نفســه... اهجر نفسك فتعرفني؛ فكلُّ قلبٍ لم يَعْمُر بمعرفتي أعمى صَدِئٌ!".

من بنية الجسد إلى أعماق الروح

كتــب "أليكس كاريل" فــي عام (١٩٣٥م) كتابًا بعنوان "الإنســان ذلــك المجهــول"، وفيه لفــتَ الانتباهَ إلى ما في جســم الإنســان من كمــالٍ، وأنــه حتمًا لا بدَّ وأن يكون له خالقٌ، وبهذا أنتجَ عملًا مهمًّا، وبغضِّ النَّظَرِ عما تعرَّضَ له مؤلِّفُ هذا الكتاب من حملاتٍ تشويهيّةٍ مــن قِبَـلِ البعضِ؛ فإن قرَّاءَنا طالعوا كتابه هذا واســتفادوا منه، وبينما كان الناس ولا ســيما الأطبّاءُ يُطالِعون تلــك التحليلات التي أجراها هــذا الكتــاب؛ كانَ ينتهــي بهــم الحالُ مــع كلِّ فصلٍ إلى قــولِ: "لا إله إلا الله"؛ لأنه يســتحيل بيانُ ذلك التناســبِ الخارقِ للعادةِ الكامنِ في جسمِ الإنسان مَا لَمْ تتدارَكْنا قدرةُ الله تعالى وعِنايَتُه.

وبعــد أن يتعرَّف الإنســانُ بهذا الشــكلِ على علاقــةِ تلك الأمور وصِلَتِهــا بالأشــياء وفــي مقدِّمَتِهــا علــمُ التشــريحِ الإنســاني وبنيتُــهُ الفســيولوجيّة، أي بعــد أن يتعرَّف على عالمــه الخارجيّ ينبغي له أن يتَّجِهَ إلى معرفةِ نفسه وآليَّاته الوجدانيّة وما يكتَنِفُ كنهَهُ من أحاسيسَ، وهو ما يمكننا أن نُطْلِقَ عليه كله اســمَ "العالَمِ الداخليّ"، وإن وقوعَ حوادثَ من قَبيلِ شــعورِ الإنســانِ بشــيءٍ مــا قبلَ وقوعه ممــا يُمْكِنُ وصفُهُ بأنه "الحدس" أو "التنبُّؤ الداخلي"؛ كأن يلتقيَ الإنســانُ عصرًا شــخصًا خطــرَ بباله صباحًــا، أو أن يَرى في رؤياه مشــاهدَ من "عالم

المثال" و"عالم البرزخ"، وأن تظهرَ بعضُ الأشياء التي رآها في منامه بعينِها أو بالشكل الذي أوَّلها به الواقفون على "تأويل الأحاديث"... كلُّ هذا ما هو إلَّا أحداثٌ يعيشها الإنسان في عالمه الداخلي، ولا يمكنُ إيضاحُ هذا في إطارِ دائرةِ الأسبابِ الحسِّيّة.

وانطلاقًا من هذا كلِّه فإن الإنسانَ حين يُواصِل رحلتَه في عالمهِ الداخليّ يعرف نفسه إجمالًا ويصل إلى وجود الخالق الأعظم، ومن ثمّ يعرفُ ربَّهُ حقَّ المعرفة.

الحرية الحقيقية

ثمة عبارةٌ يقال إنها حديث ورد فيها عن رب العزة أنَّ: "من يعرفني يبحث عني"، وقد يرتبط هذا الأمر بالمبحث السابق أيضًا، فكلَّما عرفَ الإنسانُ الخالقَ العظيمَ أكثرَ كلّما أعملَ فِكْرَهُ على منوالِ: "ترى ماذا يريد الله مني؟ كيفَ أَصِلُ إلى جواره تعالى، وكيفَ أملأُ قلبي بالشوقِ إليه؟ فواجبي أن أملأَ قلبي بالشوق إليه، وهذا حقُّهُ، ويجبُ أن يتجلَّى هو فحسب في صدري، ويجب أن أخرجَ وأطرحَ كلَّ شيءٍ سواه!"، وعَمَّق بحثَهُ وتنقيبَهُ في ذاته، وقد عبَّرَ "فضولي" عن هذه الحقيقة شعرًا فقال:

ليس بعارفٍ مَنْ يعرف أمور الدنيا وما فيها

وإنما العارفُ هو مَنْ لا يَأبَهُ بالدنيا وما فيها

أجل، كما أُشير إليه في هذين البيتين فإنه يجب على الإنسان أن يقتلِع من قلبه الدنيا وما فيها ويطرحها تمامًا، وأن يَعْمُرَ قلبه بالله سبحانه ويُجيِّشَه به دائمًا، وأن يشغل فكره وعقله به أبدًا، فإذا ما فعل الإنسان هذا فقد وجدَ الحقَّ تعالى، ولن يَترَ الله تعالى عَبْدَهُ في

مقابلِ ذلك، وإنما سيَمُنُّ عليه بكلِّ رغباته بل وبما هو أكثر منها، وما أجملَ تعبير الشيخ "محمد لطفي أفندي" عن هذه الحقيقةِ حين قال:

أَيُعْقَلُ إنْ أحبْبتَ مولاكَ ألا يحبّك ولا يرعاكَ؟!

أيعقل أن تطلبَ رضا الحقِّ فلا يمن عليك برضاه المُطْلَقِ؟

"لمْ أدخلْ في الإسلام من أجلِ الغنائمِ يا رسول اللَّه!"

إن المؤمنَ الذي يَصِلُ إلى هذه المرتبةِ ينجو من ربقةِ العديدِ من الرغباتِ والأهواءِ، ويَصِلُ إلى الحرّيَّةِ الحقيقيّة، لأنّ "الحرية الحقيقيّة تنبعُ من العبوديّة لله تعالى" فَعِبَادُ الله حقًّا يتخلَّصون وينجون من العبوديّة لغيره، أما مَنْ لم يعبدوهُ حقَّ عبادَته فإنهم سيعبُدون مئات الأنواعِ من الأشياءِ حتى وإن سجَدَتْ جباهُهُم له تعالى؛ فقد يقعُون في عبادةِ المنصِبِ والمقامِ والخوفِ والأهل والعيال والراحة والمتعة واللهو والبوهيمية والإطراء والتقدير والمنازل الساحلية لأجلِ الأهلِ والأسرةِ، والعقارات والقصور... إلخ؛ كلُّ هذا بينما لم يكن المشركون في الجاهلية يتّخِذون لأنفُسِهم أوثانًا بهذا القدر الكثير والكبير!

أجل، إن السبيلَ إلى الخلاصِ من عبوديّة الأشياءِ ينبعُ من العبوديّة الحقّة لله تعالى، وما أجملَ حياة ساداتنا الصحابة وما أبرزها من نماذج يجملُ الاقتداء بها في هذا الشأن، ومن ذلك على سبيل المثال سيدنا عمرو بن العاص ﷺ الداهية العسكري والسياسي؛ فعلى الرغمِ من تأخُّرِ إسلامه إلا أنه لما أسلمَ فهِمَ روح الدين فهمًا يستحيل ألَّا يخلبَ الأذهان ويبهرَ الألباب.

فلقد سافر سيدنا عمرو بن العاص ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية قاصِدًا الإسلامَ، فلما وصلها ودخل إلى حضرة النبي ﷺ كان وكأنّه يرتَعِشُ خجلًا منه، لأنه كان قد أساءَ إلى مفخرة الإنسانية ﷺ من قبلُ، غير أنَّ رسول الرحمة ﷺ لم يحمِلْ في نفسه أيًّا من تلك الإساءات، وإنما نسيَها تمامًا، ولنترك الحديث لِعمرِو بن العاص، إذ يقول محدِّثًا عن نفسه: فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ ﷺ: "**مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟**" قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ ﷺ: "**تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟**" قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: "**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟**"(٥)، وبعد أن أسلم عمرو بن العاص ﷺ بمدة قصيرة دعاه مفخرةُ الكونِ ﷺ، قال عمرٌو: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "**خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي**" فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ، فَقَالَ ﷺ: "**إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللهُ وَيُغْنِمَكَ، وَأَرغبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً**"، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ رغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: "**يَا عَمْرُو، نِعِمَّا الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**"(٦).

وعلى نفسِ الشاكلةِ فإن سيدنا رسول الله ﷺ حين أراد أن يعطي صحابيًّا -لم تُسَمِّه المصادر- نصيبَه من الغنيمة قال له ذلك الصحابي: "يا رسول الله! لا أستطيعُ قبول هذا، إنني أسلمت على

(٥) صحيح مسلم، الإيمان، ١٩٢؛ مسند الإمام أحمد، ٢٠٤/٤.

(٦) مسند الإمام أحمد، ٢٩٨/٢٩ .

أن يصيبني سهمٌ من هنا -وأشار إلى فِيهِ- فأَسْتَشْهِد"، ورَدَّ نصيبَه من الغنيمةِ، وفي النهايةِ أُصيبَ ذلك الصحابيُّ بِسَهْمٍ في فمه كما تنمَّى واستشهدَ، فارتقى إلى الآفاق العُلى(٧).

وهناك أيضًا أبو سفيان الذي حاربَ رسولَنا ﷺ وعارضه حتى فتح مكة؛ أُصِيبَتْ عينُهُ، فأتى النبيَّ ﷺ وعينُهُ في يده، فقال: يا رسول الله، هذه عيني أُصيبَتْ في سبيل الله، فقال النبي ﷺ: "**إن شئتَ دعوتُ فَرُدَّتْ عينُك، وإن شئتَ فالجنَّةَ**"، وفي روايةٍ "**فعينٌ في الجنة**"، قال: فالجنّةَ، ورمى بها من يده، وقُلِعَتْ عينُهُ الثانية في القتال يوم اليرموك عند منازَلَةِ الروم(٨).

إن هذه النماذج تضعُ أمام الأنظار مدى تأثير المعلّم فيمن يعلِّمُهُ والمُرَبِّي فيمن يُربّيه، وهو ما عَبّر عنه "نيازي مصري" بقوله:

لا تركننّ إلى أيّ مرشدٍ فينقلِب الفسيحُ أمامك إلى مضيق
أما مَن استرشدَ بـ"المعصومِ" سَهُلَ عليه اجتيازُ وسلوك الطريق

وإلى جانبِ ذلكَ فإنها تُشكِّل في الوقت نفسهِ ارتقاءً عموديًّا دفعةً ومرةً واحدةً.

ومن هنا فعلى مؤمني اليوم أن يقتدوا بالصحابة الكرام، وألا يطلبوا أيَّ شيءٍ دنيويٍّ أبدًا، ولا سيّما إن كان أحدُهم يعمل في أيٍّ من مناصبِ الدولة فعليه ألا يستغلَّ منصبه وصلاحياته كي يحقق نفعًا لنفسه وأولاده وأقربائه؛ وألا يستحوذ على شيء سواء كان سيارة أو

(٧) انظر: سنن النسائي، الجنائز، ٦١؛ عبد الرزاق: المصنف، ٢٧٦/٥؛ الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ٦٨٨/٣.

(٨) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٤٣٥/٢٣؛ ابن حجر: الإصابة، ٣٣٤/٣؛ أبو الفرج ابن برهان الدين: السيرة الحلبيّة، ١٦٤/٣.

طائرة أو يختًا أو سفينةً، فيستبدلَ الذي هو أدنى بالذي هو خير، بل ينبغي للإنسان السعيُ والعملُ في اتجاه نَيلِ رضا الحقِّ تعالى، وألا يستبدلَ بالرضا الإلهيّ وجمالِ الله والشوقِ للقائه، والمعيّة النبويّة السنيّة أيَّ شيءٍ على الإطلاق، فيكونُ لسانُ حاله كما وردَ في البيتِ الشهيرِ:

الله ربي لا أريدُ سواهُ

ما في الوجودِ حقيقة إلّاهُ

ويلزمُه حتى وإن عُرضت عليه الجنان في مقابل تَخلّيه عن كلِّ هذا أن يُجسّدَ دورَ البطولةِ في الترفُّعِ عن تلك الجنان فيقول: "عجبًا! أيُّ نوعٍ من الاعوجاجِ رأَوْهُ فيَّ فَجَعَلَهُم يَعْرِضُون عليَّ شيئًا في مقابلِ التخلّي عن رضا الله والشوقِ الإلهيّ ورؤيةِ الله تعالى؟!"، عليه أن يشحذَ قلبَهُ بمثلِ هذه المشاعرِ، ويملأَهُ بها ويُجيّشَهُ، فلا يستوعب شيئًا غير ذلك؛ لأنَّ أشياءَ كالتحليقِ في السماءِ والسَّيرِ على الماءِ دونَ ابتلالٍ، ومعرفةِ بواطنِ البشر، وإخبارِهم بما يخطرُ على أذهانهم بمجرَّدِ النظَرِ في وجوههم هي أشياء بسيطة لدرجةِ أنها لا قيمةَ لها كالغثاء بالنسبة للسيل.

والحاصلُ أنَّ مَن نَذَرُوا أنْفُسَهم لإعلاءِ حقائِقِ الإيمانِ والقرآنِ وإقامةِ صرحِ الروحِ مطالَبون؛ بل ومضطرُّون إلى التنبُّهِ جيّدًا لما سبقَ بيانُهُ وإيضاحُهُ من أمور، وعليهم أن يُعْرِضوا عن الدنيا وما فيها، وأن يسعوا إلى الاستقامةِ برونَقِها الصحيحِ وأُسُسِها الصافيةِ النقيّة، وعلى النحوِ الذي يطابِقُ تمامًا معنى الاستقامةِ عندَ الذاتِ الإلهيَّة، وعلى النحو الذي يوافِقُ حُكْمَ الآيةِ الكريمة ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ (سورة هُودٍ: ١١/١١٢)، لا على النحو الذي اعتبروه صحيحًا من وجهةِ نَظَرِهم.